حتى لا تكون مفلساً

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد : فكثيرا ما يغفل الناس عن الإفلاس الذي يلحق الناس في الآخرة.. وإذا ذكر لديهم الإفلاس فإنما يتبادر إلى أذهانهم نقص في مال، أو قلة توفيق في بيع أو خسارة في تجارة.. وها هو رسول الله ﷺ يبيِّن حقيقة الإفلاس وينبه على خطورته وأضراره.

قال رسول الله ﷺ : «**أتدرون من المفلس؟** قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا ، أكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته من قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار**» [رواه مسلم].

فلتنظر أخي في أعمالك.. ولتحذر من الإفلاس في مآلك.. فأما الدنيا فإنك مبارحها سواء كنت فقيراً أم غنيا.. وتبقى أمامك عقبة الحساب لا تتجاوزها ما لم تتجاوز الإفلاس.. فمن هو المفلس حقا؟!

صفات المفلس

*الحرص المذموم: فهو صفة لازمة له، تحول بينه وبين كل خير، وتسوسه إلى المهالك الوعرة، فهو أسير حرصه، وصريع شحه، يصبح والدنيا كل همه، قد سكنت غلاف قلبه، وتلبست بعقله وفكره، فهو لأجلها غافل عن معرفة الحلال من الحرام، يتتبع الرخص مهما ضعف دليلها، ولا يزال كذلك مترددًا عن أكل الحرام حتى يغلبه حرصه، ويقهره شحه، وتمنيه نفسه وشهوته ليقع في المحظور.

وها هو رسول الله ﷺ يبين حال الحريص وقد أفلس في دينه، إفلاسا عظيما ليس له مثل إلا مثل فتك الذئب الجائع بالغنم القاصية ، فعن عاصم بن عدي رضي الله عنه قال: اشتريت مائة سهم من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : «**ما ذئبان ضاريان ظلا في غنم أضاعها ربها بأفسد من طلب المسلم المال والشرف لدينه**»[رواه الطبراني].

والحرص المذموم هو الذي يسكن قلب المفلس حتى يدفعه إلى أخذ المال من غير حلِّه ، ولا يزال بحرصه وشحه حتى يضطر إلى المكر والخداع وأداء اليمين الغموس، والكذب والتغرير، وإخلاف الوعد، وتضييع الأمانة، ودفع الرشوة، والتعامل بالربا، واستغفال الناس، والاحتيال، بل منهم من باع دينه كله وإيمانه وعقيدته فلجأ إلى استعمال السحر! التماسا لعرض من الدنيا قليل ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ**

﴿أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٢]، فيا لحسرة الحريص في المآل!

وفي هذا يقول الرسول ﷺ «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**» [رواه مسلم].

قال طائفة من العلماء: «الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تتشوق النفس إلى ما حرم الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له من مال أو فرج أو غيرهما، فإن الله تعالى أحل لنا الطيبات من المطاعم والمشارب، والملابس، والمناكح، وأباح تناولها من وجه حلها، وأباح لنا دماء الكفار والمحاربين وأموالهم، وحرم علينا أخذ الأموال، وسفك الدماء بغير حقها ، فمن اقتصر على ما أبيح له من ذلك فهو مؤمن، ومن تعدى ذلك إلى ما منع منه فهو الشح المذموم ، وهو مناف للإيمان، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة والفجور والبخل، والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده، والشح تناول ما ليس له ظلما وعدواناً من مال وغيره، حتى قيل: إن المعاصي كلها من الشح، وبهذا فسَّر ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف، الشح والبخل».

ومن أعظم أسباب الحرص الذي يؤدي بالإنسان إلى مهاوي الإفلاس.

***قلة القناعة**: فالعبد إذا تطلعت عينه إلى من هو فوقه، وغفل

عن نعم الله عليه، واستجلبت عليه شهوته خيلها- فاضت رغباتــه وتطاولت أمنياته، فلا يملأ عينه شيء، ولا تقنع نفسه بشيء، فهمه كل همه أن يطفئ نار رغبته وحبه لشهوته، وليس لها حينئذ حدود!

وإذا كان حاله كذلك لم تجد القناعة في قلبه مــأوى، ولا في نفسه موطئ قدم، وهنا يتفجر الحرص في جوفه، ويصول فيه يجول حتى يدفعه إلى اكتساب المتاع بكل طريق حلالا كان أم حرامــاً، ولن يبرد نار حرصه مال مهما اكتسبه، ولا غنى مهما كان..

وهنا يقول الرسول ﷺ لأبي ذر : «**يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت : نعم يا رسول الله، قال : «**فترى قلة المال هــو الفقر؟**» قلت : نعم يا رسول الله. قال : «**إنما الغنى غنى القلــب، والفقر فقر القلب**» [رواه ابن حبان].

حتى متى في حــل وترحــال

وطول سعي وإدبار وإقبــال

ونازح الدار لا ينفك مغتربــا

عن الأحبة لا يدرون بالحــال

بمشرق الأرض طورا ثم مغربها

لا يخطر الموت من حرص على

ولو قنعت أتاك الرزق في دعة

إن القنوع الغنى لا كثرة المال

***الخوف على الجاه من الضياع**: فإن كثيراً من الأغنياء بــل وحتى الفقراء إذا ابتلاهم الله في أرزاقهم فضاقت عليهم، وأصــبح

عزيزًا أن ينالوها بالحلال كما كانوا، فقدوا قناعتهم و لم يرضوا بقضاء الله وقدره، فراحوا ينشدون المال والجاه في التحول إلى الكسب الحرام ليحافظوا على مكانتهم وأحوالهم.

وصدق الله جل وعلا حين وصف الإنسان بقوله : ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾[العاديات:٨].

قال شميط بن عجلان: «إن العافية سترت البر والفاجر، فإذا جاءت البلايا استبان عندها الرجلان، فجاءت البلايا إلى المؤمن فأذهبت ماله وخادمه ودابته، حتى جاع بعد الشبع، ومشى بعد الركوب، وخدم نفسه بعد أن كان مخدوما، فصبر ورضي بقضاء الله عز وجل، وقال : هذا نظر من الله عز وجل، هذا أهون لحسابي غداً وجاءت البلايا إلى الفاجر فأذهبت ماله وخادمه ودابته،فجزع وهلع، وقال : والله مالي بهذا طاقة! والله لقد عودت نفسي عادة، مالي عنها صبر في الحلو والحامض والحار والبارد ولين العيش، فإن هو أصابه من الحلال وإلا طلبه في الحرام والظلم، ليعود إلى ذلك العيش» [صفة الصفوة ٤٤٦/٣].

يقول ابن الجوزي : «رأيت كثيرا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل، ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عدها، من حفظ فروع وتضييع أصول. فبحثت عن سبب ذلك فوجدته من شيئين:

أحدهما: العادة. والثاني : غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه

قد يغلب فلا يترك سمعا ولا بصرا، وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، وفيما كلفته عليه خفيفة ومعتادة، وفيما لا ينقص شيئا من عادته في مطعم وملبس..

ترى أقواما يأخذون الربا ويقول أحدهم : كيف يراني عدوي بعد أن بعت داري أو تغير ملبوسي ومركوبي ؟! » [صيد الخاطر ص٢٣٣].

لا تكن مفلسا.. ولا تبع دينك بعرض من الدنيا قليل.. وكن قنوعا بما آتاك الله من رزق، يحالفك الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه**» [رواه مسلم].

ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن خير الدين الورع.. والسلامة كل السلامة في ترك الشبهة واجتناب الريبة.. قال رسول الله ﷺ : «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه**»[رواه البخاري ومسلم].

ثانيا: سوء الخلق: وفي ذلك جاء حديث الرسول ﷺ : «**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال : **إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك**

دم هذا، **فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته...»** [الحديث رواه مسلم، وقد تقدم بتمامه.

ومن الأخلاق التي توجب لصاحبها الإفلاس:

***الظلم والبغي:** قال رسول الله ﷺ : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[رواه مسلم].

وقال تعالى: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾، فمنقلب الظالم يوم القيامة إلى إفلاس وخسار وغبن وخيبة يطوق بما أخذ من أموال، ويقتص من حسناته فيما هتك من أعراض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «**من كانت له مظلمة عند أخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**» [رواه البخاري].

فأي إفلاس أعظم من هذا الإفلاس.. يأتي المسلم بحسنات عظيمة وأعمال نفيسة يدخل بها الجنة ثم يجد أمامه من المظالم والحقوق ما يجعله يغبن في أعماله إذ تنتزع منه وتعطى إلى من كان قد ظلمه حتى إذا انتهت حسناته زيد في سيئاته من سيئات المظلوم.

خف من ظلم الورى واحذرنه
وخف يوم عض الظالمين على اليد
ولا تحسبن الله يهمل خلقه
ولكنه يملي لمن يشاء إلى غد

وصور الظلم كثيرة منها : الغش في الأموال، والخديعة في البيع،

والسرقة والاحتيال، وهتك الأعراض، وقذف الأبريـــاء وكســـف العورات، والغيبة والنميمة والحسد.

فاحذر أخي من أن تصاب بالإفلاس في موقف الحساب قـــال رسول الله ﷺ «**يأتي أناس يوم القيامة لهم أمثال جبال تهامة بيضاء من الحسنات يجعلها الله هباءً منثوراً قالوا: وكيف يا رسول الله ؟ قال : يأتي أحدهم وقد سفك دم هذا، ونهش هذا، وتكلم في هذا** »[**رواه ابن ماجة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة** برقم: ٥٠٥].

*الحسد: وهو أعظم بواعث الظلم، فمنه ينشأ الحقد والظلـــم والسخرية، والغيبة والنميمة والقذف، فهو أصل الأخلاق المـــذموم وبضاعة كل مفلس، وقد قال رســـول الله ﷺ: «**الحســـد يأكـــل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[رواه أبو داود].

وأظلم أهل الظلم من كـــان حاســـداً
أشـــــغله عـــــن عيوبـــــه ورعـــــه
كمـــا الســـقيم المـــريض يشـــغله
عـــن وجـــع النـــاس كلـــهم وجعـــه

حُبس محمد بن سيرين بدين ركبه ، قال المدائني : «كان سبب حبسه أنه أخذ زيتا بأربعين ألف درهم، فوجد في زق منه فـــأرة، فظن أنها وقعت في المعصرة وصب الزيت كله.. وكان يقول : إني ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة، قال : فكانوا يظنون أنه عـــير رجلا يفقر!» [سير أعلام النبلاء ٤/٦١٤].

وأما حال المغتاب يوم القيامة فيبعث على الحسرة والإشـــفاق، فقد أخبر عن حاله رسول الله ﷺ فقال : «**لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[رواه أبو داود].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال : **ذكرك أخاك بما يكــره،** قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : **لو كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته** »[رواه مسلم].

فاحذر أخي من أن تجعل من لسانك معول هدم لحسناتك، فإن العناية بالحسنات والحفاظ عليها هو الطريق إلى النجاة من الإفلاس يوم القيامة.

ومن المحافظة عليها : صون اللسان عن السوء، وألا تتكلم بـــه إلا في الخير، كما قال رسول الله ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت** ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقـــبرين فقال : «**إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ! بلى إنه كبير : أمـــا أحدهما : فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر : فكان لا يستتر من بوله**» [رواه البخاري].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قـــال رســـول الله ﷺ : «**لا يدخل الجنة نمَّام**» [رواه البخاري ومسلم].

ولا شك أن هذا الوعيد فيه من بيان الإفلاس ما يدعو المسلم إلى الورع.

أخي : وحتى لا تكون مفلسا وطِّن نفسك على اجتناب الحرص وعودها القناعة والرضا بالقضاء والقدر فلست أفضل من رسول الله ﷺ ، وقد بات الليالي جائعا طاويا، ومات ﷺ ودرعه مرهون، ومات و لم يشبع من خبز الشعير، ومات و لم يجد من تمر الدقل ما يملأ بطنه، والدقل هو أردأ أنواع التمر، بل كان يمر الهلال ثم الهلال ولا يوقد في داره موقد... وهو ﷺ الذي يقول : «**للفقر أسرع إلى من يتبعني من السيل إلى منتهاه**».

عود نفسك القناعة فإن الرزق مقسوم قد فرغ الله من قسمته قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة...ورزقك أسرع إليك من أجلك، يقول الرسول ﷺ «**إن الرزق ليطلب ابن آدم أكثر مما يطلبه أجله**».

فعجبا لك كيف تؤمن بأن الأجل لا يخطئك ، وتظن أن رزقك يخطئك وهو أسرع إليك من الأجل.

ابذل الأسباب، وأحسن التوكل، واستعن بالله ولا تعجز، وارض بالقسمة فإنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فلا الحرص يزيد في كمال الرزق شيئا ولا البخل يحفظه! فتنبه.

ثم احذر من أن تضيع منك حسناتك في متاهات الغيبة ، وآفات اللسان وقبيح الأخلاق والخصال، ومبطلات الأعمال، فالعبرة ليست بالعمل فقط، وإنما أيضا بالحفاظ عليه واجتناب

مبطلاته وقوادحه، فقد علمت أن الرياء يحبطه، والعجب يمحقه، وترك الصلاة يفسده ، وسوء الخلق يهلكه ، وأذى الناس يذهبه وينفره، والحسد يأكله، فلا تكن مغبونا في أعمالك، واحفظها باجتناب مبطلات الأعمال، والحرص على معاملة الناس بالخلق الحسن، وتحري النية الصالحة والإخلاص، وترك العجب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***